مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب المجلد 9 العدد 2أ، 2012، ص ص 583- 612

الفقر والتمرد في الشعر العباسي إلى نهاية القرن الرابع الهجري

ياسين عايش خليل*

ملخص

يهدف هذا البحث إلى استجلاء أثر الفقر في الرؤية وفي التشكيل الفني في أشعار طائفة من الشعراء العباسيين ممن عاشوا في القرون الهجرية الثلاثة الأولى من عمر الدولة العباسية مع التركيز الخاص على بيان فعل الفقر في تمرد هؤلاء الشعراء، وانتقادهم لسلطة الخلفاء والأمراء والأثرياء، والكشف عن بعض مظاهر تجاوزهم مبادئ الدين، وقيم المجتمع العربي الإسلامي وأعرافه القارّة، كما يكشف عن خصوصية لغتهم ومعجمهم الشعري، وعن خصائص أساليبهم وصورهم الشعرية التي يمتحون فيها من بيئتهم وظروف عيشهم.

المقدمة:

تسعى هذه الدراسة إلى رصد ظاهرة الفقر في الشعر العربي في القرون الهجرية الثلاثة الأولى من عمر الدولة العباسية، وتبيّن أثر العوَز في رؤية تلك الطائفة من الشعراء الشكائين وتشكيلها الفنّي في تلك الحقبة الزمنية من تاريخ الشعر العربي، كما ستُبين عن أسباب سوقية لغتهم، وسوقية الكثير من تعبيراتهم دون الاستشهاد بهذه التعبيرات البذيئة ترفعاً. وقد اتّخذت لتحقيق هذه الغاية المنهج الوصفي التحليلي، لأنه المنهج الأنسب في مقاربة أشعار أولئك الشعراء، ودون أن تغفل الإفادة من الظروف التاريخية التي فجّرت تلك الأشعار وما يشيع فيها من سخط وتمرّد على ولاة الأمور ممن كان المال يجري في أيديهم من أثرياء غير مبالين ببؤس البائسين، ولا بحاجات المبدعين الذين طالتهم حُرفة الأدب.

ولعل أقدم دراسة عنيت بشعر بعض أولئك الشعراء المعوزين هي الدراسة التي كتبها الأستاذ حسين عطوان في كتابه (شعراء الشعب في العصر العباسي الأول) إذ وقف في كتابه هذا الذي نشره في عشر الستين من القرن العشرين على أسباب ظهور أدب الشكوى في العصر العباسي الأول، وعرّف بخمسة من أولئك الشعراء المعوزين.

وقد جاءت دراستي هذه لتمتدّ فتنظر في شعر شعراء الأعصر العباسية الثلاثة الأولى، فعوّلت على المصادر الأمهات وهي: طبقات الشعراء لابن المعتز، وكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني،

© جميع الحقوق محفوظة لجمعية كليات الآداب في الجامعات الأعضاء في اتحاد الجامعات العربية 2012.

* قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن.

وكتاب الورقة لابن الجراح، وكتاب يتيمة الدهر للثعالبي، وكتاب شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني لمحمد محيي الدين عبد الحميد

العـــرض

من يقرأ ديوان الشعر العربي في العصر العباسي، وتراجم الشعراء العباسيين، سيجد تفاوتاً ملحوظاً في المستوى المعيشيّ بينهم، إذ سيقع على شعراء مكدودين محرومين كثيرين، كما سيقع على شعراء آخرين، ارتبطت أسبابهم بذوي الجاه والسلطان، ونجحوا في التودد إليهم بما دبّجوا فيهم من مدائح، كانت محصّلتها أن أخرجتهم من عوزهم وفقرهم، فغدوا ميسوري الحال، ومن هؤلاء أبو نواس، ومسلم بن الوليد، وأبو العتاهية، وأبو تمام والبحتري.

وأما الطائفة الأولى فقد واجه شعراؤها قدرهم الاجتماعي البائس بالشكوى المريرة الناقدة حيناً، وبالسخرية العابثة والمجون حيناً ثانياً، وبالبله والتحامق وادّعاء الجنون والتّشطّر حيناً ثالثاً. وذلك كله يصب في الرفض والتمرد والسخط على المجتمع الذي لم يرحم عوزهم وجوعهم، ولم يشفق على أطفالهم ونسائهم.

1 - أبو دلامة واصطناع أسلوب التهريج وسيلة للكسب

أبو دُلامة، واسمه في الراجح من الروايات زَنْد بن الجون، شاعر كوفي أسود، وكان من موالي بني أسد، ويسلك في عداد مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، وأكثر أخباره مع المنصور والمهدي. ويتبين لمن يقرأ عن حياته[1] أنه كان يمارس دور المهرجين، مضحكي الملوك، لكن القراءة الداخلية لشعره تكشف عن عمق مأساته ومأساة أسرته، فاتخذ من مهارته في اصطناع التهريج وسيلة لكسب الرزق، والتعريض اللماح بالسلطة. يقول في إحدى قصائده بين يدي المنصور سارداً قصّته مع زوجته التي كانت تلحّ عليه بأن يسعى حثيثاً في طلب المال[2]

لا والذي يا أميرَ المؤمنين قضَى ... لك الخلافةَ في أسبابها الرِّفعُ

ما زلتُ أُخْلِصُها كسْبي فتأكلُه ... دوني ودونَ عيالي ثم تضْطَجعُ

شوهاءُ مشْنأةٌ في بطنها ثجَلٌ ... وفي المفاصل من أوْصالها فَدَعُ

ذكّرْتها بكتاب الله حرْمَتَنا ... ولم تكن بكتابِ الله تنتفعُ

فاخْرَنْطَمَتْ ثم قالت وهْي مُغْضَبَةٌ ... أأنتَ تتلو كتابَ الله يا لُكَعُ

اخرجْ لتبْغِ لنا مالاً ومزرعةً ... كما لجيراننا مالٌ ومُزْدَرَعُ

واخْدعْ خليفَتنا عنها بمسألةٍ ... إنّ الخليفة للسؤّال ينخدعُ

وفي الخبر المصاحب للقصيدة نقرأ " فضحك المنصور، وقال: أرضوها عني بمئتي جريب عامرة ومئتي جريب غامرة... قال أبو دلامة: أنا أقطعك يا أمير المؤمنين، أربعة آلاف جريب غامرة فيما بين الحيرة والنجف، وإن شئتَ زدتكَ فضحك وقال: اجعلوها كلها عامرة[3].

ومع أن رائحة الوضع في هذا الخبر واضحة، إذ لا يعقل أن يمنح خليفة كالمنصور شاعراً هذا المقدار الضخم من المكافأة، فإن فيه مع ذلك دلالة على اقتدار أسلوب التهريج في تحقيق مآرب المهرّجين على استنزال الجود من الحريصين، فالمال لايتحصّل من هؤلاء إلا على نحو ما من ضروب المخاتلة، واصطناع الإضحاك، فاصطنع أبو دلامة هذه الحكاية الساخرة منه ومن زوجته التي كانت تأتي، فيما يقول، بعِظَم بطنها واسترخائه، على ما كان يكسبه زوجها من رزق، ثم لا تفتأ تحثّه على مزيد من الكسب، أسوة بجيرانهما، وخير من يحقق لأسرتهما مرادها من المال، هو الخليفة الذي يسهل في رأيها خداعه. لقد قوّل الشاعر زوجته، وتقنع بقناعها، لينتقد، وليصل إلى مبتغاه في آنٍ معاً.

ونجد أبا دلامة في شعر آخر ينعى على الشعراء سوء حالهم، وتردّي أوضاعهم المعيشية، ويرى أن النخاسين المتجرين بالإماء خير منهم، بل إنه يزجي للشعراء نصيحة بأن يَدَعوا نظم الشعر، وأن يشتغلوا نخاسين، فذلك أربح لهم وألذ، وإلا فإن معيشتتهم ستظل مرة، يقول[4]:

إن كنتَ تبغي العيشَ حلْواً صافياً ... فالشعرَ أعْزبْه وكنْ نخّاسا

تنلْ الطرائفَ من ظِرافٍ نُهَّد ... يُحْدثْنَ كلّ عشيّةٍ أعراسا

والربْحُ فيما بين ذلك راهِنٌ ... سمْحاً ببيْعكَ كنتَ أو مكّاسا

دارتْ على الشعراء نوبةُ حُرْقةٍ ... فتجرّعوا من بعد كأسٍ كاسا

وتسرْبلوا قُمُصَ الكسَاء وحاولوا ... بالنخْسِ كسباً يُذْهبُ الإفلاسا

إن في هذا الشعر إدانة صريحة صارخة لمجتمع كان يغمض أعينه عن رعاية المبدعين، وانتقاداً مبطّناً للسلطة السياسية التي كانت تحوز المال، وفي أهرائها تدّخر أموال الخراج، ويظل شعراؤها مع ذلك محارفين مفلسين، لا يكادون يجدون ما يغنيهم عن ابتذال النفس، وإراقة ماء الوجه على أعتاب ذوي المال والسلطان.

ونجد أبا دلامة يصطنع حيلة ثانية في تصيّد العطاء من أبي جعفر المنصور ومن غيره، إذ يزعم بمهارة الإبداع والتخييل أن حاجاته غدت تتراءى له في مناماته، وأنه رآها في تلك الرؤى مقضيّة. يقول للمنصور في ثلاثة أبيات مركّزة، قصّ له فيها رؤياه التي حمّلها رسالته وحاجاته مؤمّلاً أن تتحول من أحلام إلى واقع محسوس.[5]

رأيتكَ في المنام كسوْتَ جلْدي ثياباً جمـّةً وقضيتَ دَيني
فكان بنفســجيُّ الخزِّ فيها وساجُ ناعــمُ فأَتَمَّ زيني
فصـدِّقْ يا فدتكَ النفسُ رؤيا رأتْها في المنام كذاكَ عـيني

ويقول في منامة ثانية في بيتين اثنين يزعم فيهما أنه وقف على بائع تمر:[6]

رأيتكَ أطعمْتني في المنام قَواصرَ من تمْرك البارحةْ
فأُمُّ العيال وصبيانُــها إلى البـاب أعينُهم طامحة

وسنجد الحديث عن الرؤيا في أشعار هذه الطائفة من هؤلاء الشعراء المعوزين الشكّائين تتكرر، حتى غدت ظاهرة فارقة لها أسبابها وغاياتها، لكنها في المجمل تشير إلى معاناة حقة كان يحياها هؤلاء الشعراء، وإلى سخطهم على مجتمعاتهم التي لم تحقق لهم العيش الكريم، فأخذوا يحلمون بما حرموا منه في اليقظة، فهل من بؤس هو أشد من أن يحلم المرء بأن يُطْعَمَ التمر في بلاد التمر، وأن تكون أعين صبيانه وأمُّ عياله مشدودة بلهفة إلى الباب طامحين عودة معيلهم إليهم بقواصر – أوعية – التمر، على ما في قوله (أم العيال وصبيانها) من مهارة في استرفاد الإشفاق؟

وسنلاحظ في أشعار أخرى أيضاً أن سمة الاختزال والتركيز، ستكون من أبرز سمات هذه النتف، أوالقطع الشعرية الرؤيوية، فهي تتواءم مع الأحلام في قصر مدتها، غير أنها تفارقها في وضوح رسالتها، وانكشاف خطابها.

واستغلّ أبو دلامة ما عرف عنه من "تهريج" وإضحاك في إظهار تمرّده على القيم الدينية، وعرْض نفسه في صورة البرم الساخط على "قيود" الصلاة، و"أثقال" الحرمان بالصوم، والعناء من الجهاد ونصَبِه ومخاطره، والحجّ والسفر المضني إلى مناسكه. وإذا صحَّت نسبة هذا الشعر إلى أبي دلامة وأنه نظمه في عهد المنصور أو في عهد المهدي فالغريب أن يتجاوزا عن هذا المروق على الدين الذي يجأر به هذا الشاعر، بل كثيراً ما كانت مساءلتهما له، وعقوبتهما إياه، تنتهي بمشهد كوميدي ساخر، لا تتجاوز حدَّ التعنيف الممزوج بالضحك، ولم يعرف عنه أنه أقيم عليه الحدّ، ولم يسجن غير مرة، والأمثلة على تجاوزاته مبثوثة في سيرته في كتاب الأغاني، وفي طبقات ابن المعتز، وفي تاريخ بغداد، وفي الوافي بالوفيات، وفي ديوانه المجموع وفي مصادر أخرى كثيرة...، وهو يضفي دوماً على أشعاره غير قليل من مهاراته في السخرية، فيحيل بهذه المهارة السخط عليه إلى الضحك منه، والرضا عنه. ومن ذلك مثلاً أن المنصور حمله على الصلاة في مسجده، وتهدّده بالسجن إنْ لم يفعل، فلزم الصلاة في مسجد المنصور أياماً، ثم ضاق ذرعاً بما ألزم به، فكتب قصّته إلى المنصور يتذمَّر ويستعطف، قائلاً:[7]

ألـــمْ تعلما أن الخليفةَ لزّني بمـسجدهِ والقصرِ مالي وللقصْرِ
أصلّي به الأولى جميعاً وعصْرَها فويلي من الأولى وويلي من العصرِ
أصلّيهما بالكَرْهِ في غير مسجدي فماليَ في الأولى ولا العصرِ من أجْرِ
يكلّفُني من بَعد ِمـا شِبتُ خطّةً يحطُّ بها عني الثقيلَ مـــن الوزْر
وما ضرّه واللهُ يـغـــفِرُ ذنبَه لوَ انّ ذنوبَ العالمين على ظهري

"فلما قرأ المنصور قصته ضحك، وأعفاه من الحضور معه، وأحلفه أن يصليَ الصلاة في مسجد قبيلته"

ورويت القصيدة على منحى آخر، فيها قول أبي دلامة إنه يفضّل سماع الغناء ومعاقرة الخمر في "مسجده - خمارته" هو، على الصلاة في مسجد المنصور، ولو لم يكن المنصور بحاجة ماسة إلى هذا الشاعر ليسمع منه ما يروّح به عن نفسه، لما استبقاه يختلف إلى مجالسه، ولكان بالضرورة له معه شأن آخر،أو لكأنّ المنصور كان يسلكه في عداد من رفع عنه الحرج من المغفّلين والحمقى، وإلا فكيف له أن يتجرّأ فيقول:

فقد صدّني عن مسجدٍ أسْتلذّه أعَلَّلُ فيه بالسماع وبالخمر

ويتشكى أبو دلامة بسخريته التي ألفتْها السلطة مما يلاقي من عنت قيام الليل في ليلة القدر حين يقول:(8)

يا ليلة القدْر قد كسّرتِ أرجلنا يا ليلة القدر حقاً ما تُمنينا
لا باركَ اللهُ في خيرٍ أؤمّله في ليلةٍ بعد ما قُمْنا ثلاثينا

وفي خبر طريف أن المنصور حبس أبا دلامة مع الدجاج بعد أن جاء به العسس إليه سكران، وحين أفاق من سكره كتب إلى المنصور رقعة قال فيها:(9)

أميرَ المؤمنين فدتْكَ نفسي علامَ حبسْتني وخَرَقْتَ سِـاجي
أمِن صفراءَ صافيةِ ِ المزاج كأنّ شعاعَها لهبُ السِّـــراجِ
وقد طُبختْ بنار الله حتى لقد صارت مـن النُّطف النضاج
تَهَشُّ لها القلوبُ وتشتهيها إذا برزَتْ تَرَقْرَقُ في الزجـاج
أُقاد ُإلى السجون بغير جُرْمٍ كأني بعضُ عمـــال الخراج
ولو معهم حُبستُ لكان سهلاً ولكني حُبــــسْتُ مـع الدجاج
وقد كانت تُخبّرني ذنوبي بأني مـــن عقابكَ غيرُ ناجِ
على أني وإن لاقيتُ شراً لخـيركَ بعد ذاك الــشرِّ راجِ

فهو يعتدّ شرب الخمرة، والتلذذ والاستمتاع بمرآها، وهي تترقرق صافية في أواني الزجاج، ليس جرماً يحبس عليه كما يحبس بعض عمال الخراج الذين يستأهلون الحبس. وإشارة أبي دلامة إلى جرائم عمال الخراج وحبسهم مهمة، فهي تكشف عن استغلال بعض أولئك العمال لمهامهم، فتمتد أيديهم إلى شيء منها فيسجنون. كأنه بذالك يبصّر السلطة بخبث ما يفعلون،أو كأنه يلوم المنصور، إذ كيف يسوّي بين جرم أمثال هؤلاء من عمال الخراج الذين يخونون ما ائتُمنوا عليه، وذنب من يشرب الخمر، وذلك مع أن المفارقة بينهما واضحة؟

ولو صدق الخبر المرافق لهذا الشعر لوجدنا فيه ما يثير الدهشة، إذ غدت القضية لا في تغني الشاعر بالخمرة، وإنما في كيفية تصرف أبي دلامة طول الليل وهو محبوس مع الدجاج، وهذا يفسّر الدور الترويحي المضحك الذي كان على أبي دلامة أن يؤديه للسلطة، والذي كانت السلطة تريده منه. قال المنصور لأبي دلامة بعد أن دعا به من حبسه: "أين حُبِسْتَ يا أبا دلامة؟ قال: مع الدجاج. قال: فما كنتَ تصنع؟ قال: أُقَوْقي معهنّ حتى أصبحْتُ. فضحكَ المنصور، وخلّى سبيله، وأمر له بجائزة. فلما خرج قال له الربيع: إنه شرب الخمر يا أمير المؤمنين. أما سمعتَ قوله:(وقد طبخت بنار الله) يعني الشمس. فأمر برده، ثم قال: ياخبيث، شربتَ الخمر؟ قال: لا، قال: أفلم تقل (طبخت بنار الله) تعني الشمس؟ قال: لا والله ما عنيتُ إلا نار الله الموقدة التي تطّلع على فؤاد الربيع. فضحك، وقال: خذها يا ربيع، ولا تعاود التعرّض".[10]

ومع أن في الخبر رائحة صناعة، صنعه قاصٌ ماهر استنبط حكايته من رحم هذا الشعر، فإنه يظلّ في المجمل دالاً على تجاوز هذا الشاعر عن القيم الدينية، وإدلاله بخفة روحه على السلطة، واقتداره على امتصاص غضبها عليه، بل في إحالة الغضب إلى رضا، أو لعل أبا دلامة كان يسعى لأن يشيع فكر المرجئة المذهبي الذي يرى أن الإيمان هو التصديق في القلب، وهو في أحسن حالاته التصديق في القلب، والإقرار باللسان دون العمل بالجوارح، وإذن فإن عدم القيام بالعبادات لا يسقط عن الإنسان من أمثال أبي دلامة الإيمان، كما أن ارتكاب الموبقات، وأخصها هنا معاقرة الخمرة، لا يخرج هؤلاء السكارى المعربدين من دائرة الإيــمان، وفي شعر هذا الشاعر أكثر من دليل على إيمانه بالله، فهذه الشكوى من مكابدة الصوم، ومن قيام الليل في ليلة القدر، ومن التذمر من نصب السفر لأداء مناسك الحج....تظلّ كلها أدلة على أن أبا دلامة كان مؤمناً على مبدأ المرجئة، وأنه كان يسعى للتوفيق بين رغبات الخليفة في أن يكون له جليس يروّح عنه وعثاء الحكْم ومتاعبه ومشقاته، ورغباته الشخصية الخاصة في الكسب بالتهريج، وفي الترويج الخفيّ لمبادئ المرجئة.[11]

2- أبو الشمقمق رائد الشُطَّار في القرن الثاني

ومن الشعراء المعوزين الشكائين يُذكر أيضاً أبو الشمَقْمَق، واسمه مروان بن محمد، وهو من شعراء العصر العباسي الأول، فقد عاش في القرن الهجري الثاني معاصراً بشاربن برد، ويبدو أنه توفي في خلافة الرشيد سنة 180 للهجرة (12)، وفي أشعاره التي جمعها المستشرق غوستاف غرنباوم في كتابه (شعراء عباسيون) نحسّ بأوجاعه وأوجاع بنيه وزوجته من بؤس حاله، وشدة فقره، ونراه يسلك نفسه في إحدى قصائده في سلك الشطّار حين يقول:(13)

عاد الشمَقْمَقُ في الخسارةْ وصـَــبا وحَنّ إلى زُرارةْ
من بعد ما قيلَ ارْعَــوَى وصَـحا لأبواب الشَّطارة ْ
من قهوةٍ مســـــكيّة ٍ واللـــــونُ مثلُ الجُلُنارةْ
تدع الحليمَ بلا نُهـــىً حيرانَ ليس به إحَـــارةْ

ويفسّر أبو الشمقمق في هذه القصيدة قيم الشطارة، ويحدد أسسها، وسمات الشُطار حين يجعلها محصورة في الخمرة ومعاقرتها، وفيما يكون معها من غناء، وفيما يبدر عن الشطّار من جراءة على أصحاب السلطة بكشف أحوالهم لهم تحامقاً. يقول في مخاطبة الخليفة أبي جعفر المنصور في القصيدة نفسها، يخبره عما رآه في منامه، على شاكلة ما وجدنا ذلك في منامات أبي دلامة:

يا أيها الملك ُالذي جَمَع الجلالـــــةَ والوقارةْ
إني رأيتكَ في المنا م وعدْتنـي منكَ الزيـــــارةْ
فغدوتُ نحْوَكَ قاصداً وعليك َتصديقُ العبـــــارة
إن ّالعيال َتركْــتُهم بالمصْرِ خُبْزهمُ العُصَـــــارة
وشرابُهم بولُ الحما ر مزاجُه بول ُ الحـــــمارة
ضجّوا فقلتُ تصبّروا فالنُجْحُ يُقْرنُ بالصِّـــــبارة

فهذا التشطر المغموس بالشكوى من سوء الحال، مقروناً بالمديح، وسيلة لجأ إليها الشاعر، لعلها تحقق له بعض مطالبه. وفي هذا كله رسيس خاصّ من التمرد، على نحو أو آخر، على من لم يكونوا يتحسّسون حاجات هذه الشرائح المهمّشة من المجتمع العباسي.

وأقوى من هذه القصيدة وأجمل في كشف الحال التي كان عليها أبو الشمقمق، قصيدته التي يقول فيها بلغةٍ وأسلوبٍ وصور، تماثل لغات المكدين وأساليبهم وصورهم الواقعيّة، وكأنه فيها يقف أمام حشد من الناس يعرض عليهم حاله، ليستدرّ عطفهم،فقدّم لنصّه ببيتين فيهما حقائق

ثابتة، ثمّ ثنّى ببيان ما عليه صبيانه من عُدْم حتى في يوم العيد، فلا خبز ولا أرز ولا لبن، بل جوع مقيم:[14]

ما جمــعَ الناسُ لدنياهمُ ... أنفعَ في البيت مــن الخُبْـز
والخبزُ باللـــحْم إذا نلتَه ... فأنت في أمـْن مـــن التزْز
وقد دنا الفطرُ وصبيـــانُنا ... ليـسوا بذي تمـْـــر ولا أرْز
وذاك أن الدهر عـــاداهـمُ ... عداوة الـــشاهينِ للــــوزّ
كانت لهم عنزٌ فأوْدَى بـها ... وأجدبوا مـن لـــــبن العنز
فلو رأوا خبزاً على شاهق ... لأسرعوا للخبز بالـــجـــمْز
ولوأطاقوا القفز ما فاتهم ... وكيف للجـــائع بالقــفْـــز

ويجري شعر أبي الشمقمق هذا المجرى من الشكوى ا لمريرة الساخطة على الناس، وعلى الزمان الذي حرمه أهلَهُ من أن ينال منهم أبسط مستلزمات الحياة، إنه يتشهّى ويحلم أحلام يقظة أن تكون له دابة يركبها، إذ كان حلْقُه يمتلئ غصة، كلما كان في جمع يتنادى فيه الحاضرون بأن تهيّأ لهم دوابُّهم، فلا يجد هو غير نعله يركبه:[15]

أتُراني أرى من الدهر يوماً ... ليَ فيه مطيّةٌ غيــر رجلي
كلما كنتُ في جميعٍ فقالوا: ... قرِّبوا للرحيل، قرَّبْتُ نعلي
حيثما كنتُ لا أخلِّفُ رَحْلاً ... مَن رآني فقـد رآني ونعْلي

ووصلت به سوء الحال إلى أن غدا يشتهي أن يرى في منزله الفئران والذباب، لأنها لا تكون في العادة إلا في منازل الأثرياء ودور الأمراء، حيث تجد فيها حاجتها، أما منزله هو، فقد خلا من أسباب حياتها، بل إن سنّوره – قطه – أقام عنده حولاً دون أن يعثر طوال مدة إقامته على فأر، فتراه ينفض رأسه من شدة الجوع. يقول ساخراً ومعرّضاً بأمراء زمانه، الذين حُظوا بقصد الفئران لدورهم، وانصرافها عن غشيان داره هو:[16]

ولقد قلتُ حين أقفــر بيتي ... من جِراب الدقـــيقِ والفخّارةْ
ولقد كان آهــــلاً غيرَ قفرٍ ... مُخْصباً خيرُهُ كثيــرَ العمارةْ
فأرى الفـــأرَ قد تجنّبْن بيتي ... عائذاتٍ مـــنه بـدار الإمـــارة

ودعا بالرحيل ذِبّـــانُ بيتي   بين مفْصــوصةٍ إلى طيــّارة
وأقام السـنَّوْرُ في البيت حولاً   ما يرى في جوانب البيت فـارة
ينفضُ الرأسَ منه من شدَّة الجو   عِ وعيـشٍ فيـه أذىً ومــرارة

ويستمرّ أبو الشمقمق في هذا النص العجيب، يشكو بمهارة الفنان المقتدر على انتزاع البسمة والإشفاق في آنٍ معاً، فيجري حواراً بينه وبين سنَّوْره – قطه - حين رآه ناكس الرأس، فدعاه إلى الصبر، فهو:

خير سنَّور رأته عيناه قط بحاره

لكنّ السنور يبدي استهجانه من مثل هذا الطلب فيقول لصاحبه وهو يحاوره: (لا صبر لي):

وكيف مقامي   وسْط بيتٍ قفْرٍ كجوف الحمارة؟

فناداه بإشفاق ممزوج بسخرية أن يُيمّم إلى:

بيت خانٍ   مُخْصِبٍ رحْلهُ كثيرِ التجارةْ

واستمرّ أبو الشمقمق يسرد مظاهر عُدْمه، وأدلّها هنا أن العنكبوت غزلت لها بيتاً في أواني شرابه: الدَّنّ والكوز والحُبّ (الجرة) من الإهمال وعدم الاستعمال.

ويكرر أبو الشمقمق هذا المشهد وهذا الحوار بينه وبين سنَّوره في قصيدة أخرى، وهي تقطر كقصيدته هذه سخرية وبؤساً، فقد وجدنا السنور فيها يعزم على مفارقة منزل صاحبه أبي الشمقمق، لأنه لم يعد يجد فيه ما يدفئه ويقيه من غائلة البرد، كما لم يعد يجد فيه ما يأكله، لأنه غدا عاطلاً، لا من الحليّ، وهي إشارة تعريضية ذكية لمّاحة إلى الأثرياء الذين يزدهون بما يملكون من حليّ وجواهر، بل من الجرذان والذباب:[(17)]

ولقد قلتُ حين أَحْجرني البرْ   دُ كما تُحْجِرُ الكلابُ ثُعالة
في مـبيتٍ من الغضارةِ قفرٍ   ليس فيه إلا النّوى والنخالةْ
عطَّلتْه الجرْذانُ من قلَّة الخيْـــــــرِ وطار الذبابُ نحو زبالة

وبعد هذه المقدمة التي امتدت في ستة أبيات سرد فيها الشاعر حكايته مع العُدْم، يستأنف حواره الذي نجده يسترضي فيه سنَّوره، ويحثُّه على الصبر، وعدم الرحيل من بيته، غير أن سنوره لا يستجيب لمطلبه، فما الذي سيناله من بقائه في بيت قفر (كبيدِ تبالة).[(18)]

وينعى أبو الشمقمق عصره، لأنه عصر انقرض فيه أصحاب النخوة من الموالي والعرب على حدٍّ سواء، فكلّ من يعايش قشور وريح قِرَب، يقول:[(19)]

ذهب الموالي فلا موا ... ل ، وقد فُجِــعْنا بالعربْ
إلّا بقايا أصبــــحوا ... بالمصْرِ من قشْرِ القصبْ
بالقول بذّوا حــاتماً ... والعقْلُ ريــحٌ في القِرَبْ

ويكرر هذه الشكوى في شعر آخر، لأن منزله الفضاء، وسقفه (سماء الله أو قطع السحاب)، وإذا أردتَ السلامَ عليه في هذا البيت، دخلْتَ من غير باب، لأنك لن تجد:[20]

مصراع بابٍ ... يكون من السحاب إلى التراب

والحق أن شعر أبي الشمقمق لطيف جله، بما سكب فيه من سخرية وانتقاد لأهل عصره الذين أغمضوا أعينهم عن تحسّس أوجاع البائسين، وهو إلى ذلك مصوغ بلغة سهلة وبصور فنية واقعية، ولولا أنه أكثر من البذاءة في أشعاره لعدّ في عداد الشعراء المجوّدين في نسج صور السخرية الفنية التي تتسامى على بؤس مبدعيها وشقائهم بإضحاك المتلقين، والترويح عنهم. بل لعل هذا الإسراف في تصيُّد صور البذاءة وتعبيراتها كانت مقصودة قصداً، فالمجتمع الذي لا يرحم المعوزين، جدير بأن تهمّش قيمه، ولذلك وجدناه يهجو بغداد وساكنيها لمَا شاع في أهلها من زيف، فهم يتقنّعون بأقنعة الشرف وعلو النسب، بما يلبسون من طيالس، مع أنهم يمارسون مع المبدعين أسلوب الإقصاء والتهميش والاستغلال، يقول:[21]

ليس فيها مُرُوّة لــشريف ... غير هذا القناع بالطيلسـانِ
وبقينا في عصبةٍ من قريش ... يشتهون المديح بالمجّانِ

ووجدنا في شعر آخر طريف لشاعر غير مسمى أبياتاً، يعلن صاحبها فيها سخطه على الأثرياء من التجار الذين تجري في أيديهم الأموال، فقد تراءى له في أحلام يقظته أنه صار ثرياً، وأن الناس يسألونه آنئذٍ: أنى لك هذا الشعير موفّرةً به جِمالُكَ لدوابِّكَ؟ كما تراءى له أن له قهرماناً – وكيلاً – وغلاماً اسمه موفق، وأنه يمارس من علٍ سلطة الأثرياء على خدّامهم، فيقول لقهرمانه: أيها القهرمان، "سل غلامي موفّقاً عن بغالي"، كما يحلم أن يُرى فوق رواق عالٍ في مجلسٍ عالٍ، وهو يصدر أوامره لخدمه أن "أسْرجوا لي فيسرجون دوابي " ثم يبدو له أن يصدر أمراً لهم جديداً مناقضاً لأمره الأول، رغبة منه في أن يمارس السلطة ليس غير" انزعوا السروج بدا لي "، ولكنه مدرك بوعيه أن هذا كله هذيان ورؤيا حمقى، يقول في هذه القصيدة التي أكاد أزعم أنها بعمق دلالتها، وبآليّاتها الفنية القائمة على التخييل، والحوار الداخلي، والاستباق، جديدة على الشعر العربي في ذلك الزمن.[22]

أتُراني أَقول يومْاً من الدهــــــرِ ... لبعضِ الّتجَارِ أفْسَدْتَ مَالــــي
أَو تَراني أَقول مِن أَينَ جــاءَتْ ... لِدَوابي بذا الشَّعير جِمالــــي

أَو تَراني أَقولُ يا قَهْرمـــانيْـــيُ   سَلْ غُلامي مُوَفَّقاً عن بــغالــي
أو تَراني أَمُـــرُّ فـوقَ رِوَاقٍ   ليَ عالٍ في مجلسٍ لــيَ عــالي
أَسْرِجوا لــيْ فَيُسْرِجونَ دَوَابي   فأَقولُ: انزعُوا السُّروجَ بَدا لــي
هَذَيَاناً كما ترى وفُضُـــولاً   دائمَ النُوْكِ مـــن عَظيمِ الْمُحالِ

وقريب من هذا المنهج الساخط الساخر في آن معاً، ما نجده في شعر شاعر يدعى يزيد بن محمد، ويُكنّى بأبي خالد اليزيدي المهلبي، وكان ينزل الشام، ثم تحوّل إلى بغداد، إذ نجده يقول في حوار وسرد حكاية لأحلام يقظته:(23)

قالوا تمـنّ، فقلت: القوتُ في دعة   ببطن مُرَةَ، لا وحلٌ ولا سَــهكُ
بطنٌ إذا افترش المــسكين تربته   رأيتَ أنظف فرشٍ يَفرش ا لــملك
لي حُرّةٌ من عباد الله صـــالحةٌ   لا الجارَ تؤذي، ولا الإسلامَ تنتهك
وإنْ تفاجئْك أضـــافٌ أتاك لهم   مقلوٌ بُسْرٍ به البرْنيُّ يـــــنعلكُ
في منزلٍ لم يكن من مكسب سُحُتٍ   و لا يُخاف به من عامـــلٍ دَرَكُ
تُسلِّم النُسكَ للنُســـّاكِ خُلوتُه   ويســـْتر الفتْكَ من قومٍ إذا فتكوا
لقد تمنّيْتُ عيشاً ليس يـــعرفُهُ   و لا بصـــيرٌ بطيبِ العيش مُحتنكُ

فأماني الشاعر وأحلامه محصورة في أبسط مستلزمات الحياة الإنسانية: القوت والمسكن الترابي الفراش غير الوحل، ولا المنتن الرائحة، والزوجة الصالحة، والقليل من أصناف التمر يقدمه لضيفانه، وأن يكون منزله منزوياً يصلح أن يكون خلوة للنُسّاك أوالفُتّاك، بعيداً عن أعين السلطة ورقبائها المخوفين، وليس فيه مما اكْتُسب بالسُحْت، على ما في هذا التوصيف الأخير من انتقاد شديد للسلطة القمعية التي تلصّ أموال الناس بالباطل، ولا ترحم عوزهم، ولا تحسّ بما هم فيه من شقاء وفقر وحاجة.

ومن الشعراء الشكائين عبد الله بن أبي الشيص، الذي قال عنه ابن المعتز في طبقاته: كانت به لوثة، فقد ألقى نفسه في نهر دجلة في يوم شديد البرد، وأخرج منه حياً، لكنه ما لبث أن مات. يقول في أبيات يذمُّ(24) الزمان الذي ناصر الأنذال، وغدا حرباً على الأحرار، فمنح خيره وماله للأولين، ومنع سَيبهُ عن الآخرين في معادلة ظالمة غير منطقية:

أظنُّ الدهـرَ قد آلَى فــبرّا   بأنْ لا يُكسِبَ الأموالَ حُرّا
كأنَّ صـفائح َالأحرار أرْدتْ   أباه، فحاربَ الأبرارَ طُرّا
وأمكنَ من رقابِ المال قوماً   وملّكهم بها نفعاً وضرّا
وأصبح كلُّ ذي شرفٍ رَكوباً   لأعناقِ الدجى بحراً وبرّا

فثورة هذا الشاعر على الزمن – الدهر – إنّما هي ثورة على الحالّين فيه، والمتعايشين معه، فلماذا يحارب الأحرارَ؟ أبينه وبينهم ثأر؟ هل ضربوا أباه بصفائحهم – سيوفهم – فهو لا يني عن ملاحقتهم بالعنت والشقاء ويطاردهم عبوسه وتجهمه، ويضطرهم إلى التنقل والأسفار براً وبحراًسعياً للكسب؟

وكان أبو فرعون الساسي التيْميّ العدويّ البصريّ من أفصح الناس- على ما يقول ابن المعتز - وأجودهم شعراً، وأكثرهم نادرة، ويحسب في عداد شعراء الكدية[25]، وقد أسهم في هذا الاتجاه الكاره للظرف التاريخي،إذ يقول في نصّ قصير مختزل، كأنه الومضة الشعورية، أربعة أبيات شعرية قائمة على السرد الساخر، والحوار الهادئ، واللغة السوقية، والصورة المفارقة للمـألوف، والوزن المجزوء "المجتث" "مستفعلن فاعلاتن"، كأن الشاعر أراد أن يكون في نصه هذا، غريباً غرابة الحياة التي يحياها بنكد، لأن النص وليد رؤيا منام:

رأيتُ في النوم بختي في زيّ شـيخٍ أَرَتّ
أعمى أصمّ ضئـيلاً أبا بنينٍ وبنـــتِ
فقلت:حُيِّيتَ رزقي فقال: رزْقُك باسْتي
فكيف لـــي بدواءٍ يُلينُ لي بَطْنَ بختي

وهو القائل في أبيات يظهر فيها شكواه من كثرة عياله بسبب ضيق حاله وفقره الشديد إذ عجز عن توفير الماء والدقيق لهم:[26]

يا إخوتي يا معشرَ الموالي أنا ابْنكم وأنتـمُ أخوالـي
هذا زَبيلي وجرابي خالـي والماءُ عالٍ والدقيقُ غال

وقد مللنا كثرة العيال

3 - شعراء البلَه والتحامق

ونرى طائفة أخرى من الشعراء المعوزين، يواجهون الحياة بضرب من التحامق والبله، ويُذكر من هؤلاء المتحامقين أبو العِجْل الذي عاش في أيام المتوكل، وكان التقاه في دمشق. جاء في مختصر طبقات ابن المعتز عنه قوله: "وكان أبو العجل من آدب الناس وأحكمهم وأكملهم عقلاً.....استعمل الغفلة...فلم يحل عليه الحول حتى اكتسب بذلك مالاً كثيراً"[27]. وقد واجه هؤلاء الشعراء المتحامقون الحياة بكثرة التذمُّر، وبشدة السخط والنقد، وهم يتحامقون حتى يقولوا ما يشاءون، فيطرب لهم الناس، ويعجبون بهم، إذ ثمة قاسم مشترك بينهم في المعاناة، فيعبّر المتحامق عن معاناته شعرًا وفناً ساخراً، ويستجيب له الناس فيعبرون عن استجابتهم

لسخريته بقهقهات وابتسامات عريضة، ويفلت هو في الوقت نفسه من مساءلة السلطة إياه، وعقوبتها ا لمتوقعة له، إذ يتخفّى هؤلاء المتذمرون بأقنعة الحماقة، ومسلكيات الحمقى وأقوالهم "غير المسؤولة"، ويتساءل المرء حين يقرأ مثل هذا الشعر: هل يُعقل أن يصدرعن أحمق مثل هذا الشعر؟: (28)

أيا عاذلي في الحمْق دعني من العذل ... فإني رخيُّ البال من كثرة الشُغلِ
فمرني بمـــــا أحببتَ آتِ خلافَه ... فإن جئتني بالجـدِّ جئتك بالهزْلِ
وإن قلتَ لي: لمْ كان ذاك؟ جوابُه ... لأني قد استكثرتُ من قلّة العقلِ
فأصبحتُ في الحُمْـق أميراً مؤمّراً ... وما أحدٌ في الناس يُمْكنه عزْلي
وصيّرَ لي حُمْقي بغالاً وغلْمـــةً ... وكنتُ زمان العقل ممتطياً رجْلي

إنّ النصّ بما فيه من مفارقات ومقابلات، يكشف عن أسلوب ذكي، وشاعر فطن، اضطره ظرفه التاريخي إلى أن يتحامق، وبالحماقة غدا أميراً مؤمّراً لا يمكن لأحد أن يعزله، وصار يجد بالحمق شيئاً من مظاهر الحياة الرخية التي كان محروماً منها أيام "العقل". فقد صار له بالحماقة غلمة، وبغال يركبها، أمّا زمان العقل فكان ممتطياً رجليه.

ويفصح نصُّ ثان لهذا الشاعر عن أنه توخّى أن يكون أحمق عن "سابق إصرار وترصُّد" إذ وجد بالحماقة السعادة والهناءة وســـــــعة الرزق والتقدير، يقول:(29)

عذلوني على الحمـــاقة جهلاً ... وهْيَ من عقلـهم ألذُّ وأحلى
لو لقُوا ما لقِيتُ من حُرْفةالعقْـ ... ـل لســاروا إلى الحماقة رَسْلا
أذْعَنَ الناسُ لي جميعا ً و قالوا ... يا أبا العجلِ ، مرْحَبَيْنِ وسهلا

ويلاحظ أن الشاعر يعرض موقفين متضادين متعاكسين هما: هو والآخرون. أما هو فيبدو وحيداً ملوماً معذولاً، لا يلقى من الناس غير العذل والتبكيت، وأما هم فلسانهم واحد، يقرّع ويلوم جهلاً بما في الحماقة من حلاوة. وتكاد هذه الثنائية التقابلية تكون مظهراً عاماً لدى هذه الطائفة من الشعراء البؤساء، وهي تشير إلى هذا الشرخ الذي كان بين أولئك الشعراء، ووسطهم الاجتماعي، وقد تنزّل هذا الشاعر بشعره من علياء الرصانة إلى دنيا الرعاع والسوقة بهذا التعبير "مرحبين وسهلا".

وفي نصّ ٍ ثالث يكشف أبو العجل عن مدى ما عانى في"زمان العقل"، إذ طوّف في أرجاء الأرض بحثاً عن الرزق، لكنه عاد من أسفاره الطويلة بقناعة مؤداها أن التعاقل "حُرفة" وضيق، وأن في التحامق سعة وراحة بال. يقول:(30)

اكففْ ملامَك مُحْـسِناً ... أو مُجْملاً متطــوّلا
أَعَلى الحماقة لُمـتني؟ ... قد كنتُ مثلَــك أوّلا

فدخلتُ مصرَ وأرضَها والشامَ ثمّ المَوْصلا
و قرى الجزيرة لم أدعْ فيـــها لحيٍّ منزلا
إلا حللتُ فِنـــــاءه بالعقل كي أتـــموّلا
وإذا التعاقـــلُ حُرفةٌ فعزمــْتُ أنْ أتحوّلا
فانظرْ إليّ، أمــا ترى حال َالحمــاقة ِأجملا
من ذا عليه مؤنِّبــي حتى أعود َفأعْقِــلا

ويغصّ كتاب يتيمة الدهر للثعالبي بمثل هذه الشكاوي التي تتساقط من أفواه المحرومين من الشعراء، الهازئين بالدهر الساخطين عليه. ومن الأمثلة التي يمكن الاستئناس بها في هذا المقام أشعار أبي الحسن محمد بن محمد المشهور بابن لنْكك البصري[31]، وأشعار أبي الرقعْمَق"[32].

أما ابن لنكك فقد نظم شعراً كثيراً ذمّ فيه زمانه، الذي سمّاه زمان اللئام وانقراض جيل الكرام، فمن ذلك قوله يصور احتقان نفسه ونفوس من كانوا على شاكلته بما تعجز الأفلاك عن حمله من الهموم:[33]

زمانُ رأينا فيه كلَّ العـــجائب ِ و أصبحت الأذنابُ فوق الذوائب ِ
لوَ انّ على الأفلاك ما في نفوسنا تهافتت ِ الأفلاك ُمن كل جانـــب

وقال بسخط شديد على دهره ومن فيه من علوج، فاضطره ذلك إلى القعود عن السعي:[34]

مضى الأحرارُ وانقرضوا وبادوا و خلّفني الزمانُ على عـلوج ِ
و قالوا: قد لزمْتَ البـــيتَ جدًّا فقلتُ لفقـــد ِفائدة ِ الخـروج ِ
لمَن ألقى إذا أبـــــصرْتُ فيهم قروداً راكبين على الســروج ِ
زمانٌ عزّ فيه الجـــــود ُحتى تعالَى الجودُ في أعلى البروج

ولم يكتف ابن لنكك بهذا السخط يصبه على دهره وأهل عصره (القرود الراكبين على السروج) حسب، وهو سخط باد بهذه المتواليات المترادفة في صدر البيت الأول،الذي غيّب الزمانُ فيه الأحرارَ وأبادهم، بل صبّ في نصّ ثان غضبه أيضاً على من يتظاهرون بالوقار، وطول اللحى، مع أنهم بقر، وسحاب منتشر، وشجر سرو جميل البهاء لكنه لا يثمر، [35]:

لا تخدعنْك اللحى ولا الصوَرُ تسعةُ أعشار مَن ترى بقرُ
تراهم كالسحاب منتشـــراً و ليس فيهم لطالبٍ مطـرُ
في شجر الـسرو ِمنهم مثلُ له رُواءٌ وما له ثـــمرُ

ثم صب حنقاً آخر على ملوك عصره وقضاتهم، فالملوك عنده أشباه حمير، وقضاتهم حمقى:

أَوَ ما رأيت ملوكَ عصرِكَ أصبحوا يتجمَّلون بكلِّ قاضٍ أحمـــقِ
لا تلقَ أشباه الحمير بحكمـــةٍ موِّهْ عليهم ما قدرْتَ ومَخْرِقِ

ويتجرأ أكثر فيلعن وجوه بلده جميعاً لأنهم يأخذون بأيدي اللئام، ويسفّ إسفافاً شديدا في سبّهم بلغة سوقية، مستعيناً بذاكرته التاريخية في استحضار صور التشابه، وذلك حين يشبّه مهارتهم في قصد طرق اللؤم بمهارة القطا حين تقصد مصادر الماء، بل هم عنده أمهر منها في ذلك بما ركب فيهم بالقوة والغريزة(36):

لُعنتم جميعاً من وجوهٍ لبلدةٍ تكنَّفهم جهــــــلٌ ولؤمٌ فأفرطا
وإنّ زماناً أنتمُ رؤســـاؤه لأهلٌ لأن "يُخـ..."عليه و"يضـ..."
أراكم تعينون اللئام وإنــني أراكم بطُرْق اللؤم أهــدى من القطا

فهو يوجِّه في خطاب مباشر جريء ثورة عارمة على زمانه، وعلى عموم أهل عصره بسبب ما لقي من حرمان، وكانت حُرفة الأدب تمسُّه وتجشّمه، ومحنة الفضل تدكّه فتخدشه، ونفسه ترفعه، ودهره يضعه.(37)

وأما أبو الرقعْمَق، واسمه أبو حامد أحمد بن محمد الأنطاكي، فهو ممن تصرف بالشعر الجزل، في أنواع الجدّ والهزل(38)، وكان يهجو زمــانه وأهل عصره جملة حين صيروه رقيعاً أحمق، إذ أعرضوا فيما يزعم عن أصحاب العقول من أمثاله، ورفعوا من شأن الأخسّاء.(39)

كُفِّي ملامكِ يا ذات الملامـــاتِ فما أريد بديلاً بالـــرَّقاعات
كأنني وجنودُ الصفْعِ تــتْبَعُني وقد تلوتُ مزاميرَ الرَّطانـــات
قِسِّيسُ ديرٍ تلا مزمارَه ســـحَراً على القُسوس بترْجيعٍ ورنَّــات
وقد مجَنْتُ وعلّمتُ المجون فما أُدْعَى بشيءٍ سوى ربِّ المجانات
وذاك أني رأيتُ العقلَ مــطَّرحاً فجئتُ أهلَ زماني بالحماقـــات
لمَّا حللتُ بدارٍ ما لـــها أحـدٌ إلا أناسٌ تواصَوْا بالخـساسات
لو كنتُ بين كرامٍ ما تهضّـَمنـي دهرٌ أناخَ على أهل المــروءات

إن الشاعر في هذا الذي يقول يدين أهل عصره وزمانه الذي انقلبت فيه المعايير، وانحطّت فيه القيم، إذ ساد الأخساء فيه على الناس، فضاع لبُّ الشاعر، فقابل زمانه بالاستهتار والمجانة، وبالحماقة واللامبالاة. ومع أنه يقول هذا، فإنه في واقع الحال إنما يعبر عن مرارة نفسية عميقة، وغربة حادة،وقد غدا معجمه الشعري مثقلاً بالألفاظ والعبارات السوقية ذات الحقل الدلالي الواحد أو المتجانس: الرقاعات،و مجنت، ومجون، ومجانات، والحماقات،و الخساسات.

ومرة أخرى نجد أبا الرقعمق يظهر نفسه غريباً عن مجتمعه، فلم يعد يجد من يستحقّ المدح، ولم يعد يجد من يشكو همومه إليه، فصار سكران بلا مسكر. يقول:[40]

لمن أمدحُ بالشـعر؟ لمن أقصد؟ لا أدري
إلى من إن دجا خطْبٌ و نابتْ نُوَبُ الدهـر
فقد، والشَّفْع والوتْر ومَن أَقْسَمَ بالفجـرِ
تحيّرتُ فما أدري الـــ ذي أصْنَعُ في أمـري
على أنيَ بالدهـــ ر وبالأيام ذو خُـــبْرِ
ولكنيَ للـــخير ة سكرانٌ بلا سُـــكْرِ
كأني لستُ مـخلوقاً لغير الجَهْدِ والضـــرِّ
ومذ كنتُ، فمدْفوعٌ إلى الفاقة والـفقـــر

والقصيدة طويلة، وهي حافلة بتصوير مظاهر العذاب والاضطراب النفسي الذي كان عليه صاحبها، وادعاؤه الحمق فيها كان ضرباً من ضروب الاسـتهتار بالـــناس وبالقيم، وفيها من هذا الاستهتار والبذاءة الكثير الذي لا يحتمل.

4- الشعراء الجوّالون والتكدّي

كانت يد العوز قد طالت عدداً غير قليل من مبدعي الشعراء، كما طالت عدداً غير قليل من مبدعي الكتّاب والعلماء في هذا العصر، ولنا في أدب المقامات التي أنشأها بديع الزمان الهمذاني،المتوفّى سنة 398 للهجرة، أكبر مثال على ذلك، فأرباب البلاغة والفصاحة، وأبو الفتح الإسكندري رمز لهم، كانوا أدباء جوّالين اَضطرتهم ظروف عصرهم أن يتكدّوا، وأن يحتالوا طلباً لمأكل حسن، ولباس ساتر، ومسكن يقيهم الحرّ والقرّ، والأشعار المضمنة في المقامـــات مثقلة بأوجاع الناس وشكاواهم من العيشة المرة التي كانوا يحيون. ومع أن هذه المقامات أدب متخيّل في شخص بطلها أبي الفتح الإسكندري، وفي شخص راويها عيسى بن هشام، فإنها تظلّ صالحة للدلالة على الوضع الذي كان عليه أناس كثيرون، في تلك الحقبة من تاريخ العرب السياسي والثقافي والاجتماعي. ففي المقامة القريضية نجد أبا الفتح الاسكندري يصف وضعه المعيشي المزري الذي يضطره إلى التجوال بين دارا، وإيوان كسرى، وسرّ من رأى، وجبال بُصْرَى، في ثوب خلق – طِمْر - يتغشّاه، سعياً لكسب الرزق:

أما تروني أتغشـــّى طِمْرا ممتطياً في الضُرّ أمراً مُرّا
لولا عجوزٌ لي بسُـرّ من را وأفرخٌ دون جبال بُصرى
قد جلب الدهرُ عليهم ضُـرّا قتلتِ يا سادةُ نفسي صبْرا

وهو ما دعاه إلى أن يموّه شخصه، ويغيِّر أقنعته في مقاماته كلها، وهي أقنعة التكدّي والبلاغة والفصاحة والتحامق، وشعاره فيها كما يقول في المقامة الأزاذية:

فقضَّ العُمر تشبيهاً على الناس وتمْويها

وقوله في المقامة البصرية عن انقلاب المعايير والقيم، إذ غدا الفقر علامة فارقة دالة على أرباب الكلم من المبدعين:

والفقرُ في زمن اللئا م لكلِّ ذي كَلِمٍ علامــهْ
رغِبَ الكرامُ إلى اللئا م وتلك أشراطُ القيامةْ

فالزمن الذي يحيا فيه هو زمن الجنون، بل هو زمن لا يسعد فيه غير المجانين كما يقول في المقامة المكفوفية، فيضطره وضعه المعيشي إلى التلوُّن كثوْبه القلمونيّ المتقلِّب الألوان،

أنا أبو قَلَمُـــون في كلّ لــون أكونُ
اخترْ من الكسْب دوناً فإنّ دهــرَك دُونُ
زجّ الزمان بحمْــقٍ إن الزمان زَبُــونُ
لا تكذبنّ بعـــقلٍ ما العقل إلا الجنونُ

وأمانيه ومطالبه في المقامة الساسانية ليست أبعد من ملء بطنه، وستر جسمه، وتنظيف جسده، وتسريح شعره....:

أريدُ منك رغــيفاً يعلو خِواناً نظيفا
أريد لحماً غريضــاً أريد خلاً ثقــيفا
أريد مـــاءً بثلج يغشَى إناءً طريفا
أريد منك قمــيصاً و جبّة ونصـيفا
أريد نعلاً كـــثيفاً بها أزور الكنيفا
أريد مشطاً وموسى أريد سطلاً وليفا

وليس أبو الفتح الإسكندري الذي اصطنعه بديع الزمان الهمذاني إلا أنموذجاً إنسانيًا لطائفة من الناس، لها كينونتها الاجتماعية المثقلة بأوجاع العوز والفاقة، وكانت هذه الفئة قد سادت في القرن الرابع الهجري، وهو القرن نفسه الذي اضطر فيه أبو حيان التوحيدي - وهو من هو عِلماً وشهرة - إلى أن يحرق كتبه، لأنها لم تعد عليه بنفع، بل اضطر معها أن يأكل الخضراوات في الصحراء، وإلى أن يبيع الدين والمروءة، كما قال في رسالته المشهورة إلى صديقه القاضي أبي سهل علي بن محمد.[41]

كما ظهر في القرن الرابع الأحنف العكبري "شاعر المكدين وظريفهم... وهو فرد بني ساسان اليوم بمدينة السلام" كما يقول الثعالبي في يتيمته[42]، ويكشف شعره عن معاناته ومعاناة

أقرانه من الشعراء المكدين الذين كانوا يتجولون في أنحاء الدولة الإسلامية ضيقاً من الحرمـــان، وسعياً وراء الكسب وهو شعر فيه إدانة صريحة للمجتمع الذي جعل هؤلاء الشعراء مؤرّقين مغمومين، يظهرون سخطهم على الأوضاع الفاسدة التي صيّرتهم لا يقرُّ لهم قرار. يقول في إحدى قصائده، يهجو زمنه وأهل عصره واصفاً إياهم بالأنذال:[43]

عشتُ في ذلَّـــةٍ وقلةً مالٍ   و اغترابٍ في معشرٍ أنذالِ
بالأماني أقول ُلا بالـــمعاني   فغذائـــي حلاوة ُالآمــالِ
ليَ رزقٌ يقولُ بالوقْف ِفي الرأْ   يِ ورجْلٌ تقول بالإعْتزالِ

والبيت الأخير دقيق المعنى، فرزقه جبري، وسعيه اعتزالي، على ما هو معروف من فرق بين المجبّرة والمعتزلة من تناقض في الحكم على الإنسان أنه مُسيّر، وهو رأي الجبرية،أو مُخيّر، وهو رأي المعتزلة.

ويشبّه الأحنف العكبري أهل عصره بالخنازير، وقد ساق ذلك في بيتين يكشفان عن إحباطاته في حياته، فالدنيا حلوة غير أن الناس فيها هم سرّ ما بها من سوء:[44]

رأيتُ في النوم دنيانا مزخرفـــةً   مثلَ العروس تراءتْ في المقاصيرِ
فقلت ُ: جودي، فقالت لي على عَجَلٍ   إذا تخلّصــْــتَ من أيدي الخنازير

ويرى هذا الشاعر أن العنكبوت والخنفساء خير منه، لأن لكل منهما بيتاً تأوي إليه، في حين حرم هو من هذا الطموح:[45]

العنكــبوت بنت بيتاً على وَهَنٍ   تأوي إليه وما لــي مثلَه وطنُ
والخنفساءُ لها من جنسها سَكَنُ   و ليس لي مثْلها إلفٌ ولا سَكَن

وبسبب ذلك الفقر الشديد، يضطر الشاعر إلى أن يظل دائم التجوال، يحتال على الناس باصطناع المخاريق، فليس له بيت يأوي إليه، وليس له إلف ولا زوجة - سكن - يريح جسمه عندها.

قد قسَّم اللهُ رزقي في البلاد فـما   يكاد يُدْرَكُ إلا بالتفاريـــق
ولستُ مكتسباً رزقاً بفلســـفة   و لا بشِعْرٍ، ولكن بالمخاريق
والناس قد علموا أني أخو حِيَلٍ   فلستُ أنفُقُ إلا في الرساتيق

إن التفاوت الهائل في المستوى المعيشي بين من يحمّلون الذهب فوق أثفار الدوابّ ومن لا يجدون أبسط مستلزمات الحياة، قاد الأحنف العكبري إلى السخط، وإلى التشهير بعصره وبأهل عصره، بل قاده إلى العبث والمجون والبذاءة في كثير من شعره لأنه كان يرى نفسه غريباً شاذاً، لأن الناس فيما يقول لا يحسون بأوجاعه وعيشته البائسة، يقول[46]:

ترى العقْيَانَ كالذهب المصفَّى تركّبُ فوق أثْـفار الدواب
وكيسي منه خلْوٌ مثلُ كفِّـي أَمَا هذا من العَجَب العُجاب

وسوء الحال هي التي دفعت شعراء آخرين إلى تخطي القيم الاجتـماعية، وإلى الاستهانة بالمقدسات والعبادات، وإلى البذاءة في القول، والمجاهرة بالمعصية، وقد اختار هؤلاء الشعراء لقصائدهم لغة السوقة ورعاع الناس، كما اختاروا لها الأوزان القصيرة. وكانت هذه حال ابن سكرة الهاشمي[47]، وحال ابن الحجاج أبي عبد الله الحسن بن أحمد[48]، وحال أبي دُلف الخزرجي[49] وأحوال شعراء كثيرين عاشوا في القرن المذكور، وهم جميعاً ممن اكتووا بالحرمـــان والفقر وتباريحه، فانعكس ذلك في شعرهم شكوى مرة، وسخطاً شديداً، ونقمة، وتمرداً على القيم الاجتماعية والدينية وعلى لغة الشعر الرصين، والبناء المـــحكم، والأوزان الطويلة، فسهلت لغة هؤلاء الفقراء العابثين، وغدت أقرب إلى لغة الســوقة، والاستمداد من قاموس البُذاء والمـــكدين ومصطلحاتهم الخاصة، التي لا ترعوي عن وصف مظاهر المجون والفجور بلا أدنى مواربة، أو خشية من رقيب يحصي عليهم خروقاتهم، ونحرهم لقيم المجتمع العربي الإسلامي، يقول ابن سكّرة في وصف سوء حاله، وأن الموت لذلك خير له[50]:

جملةُ أمري أنني مُفلِسٌ و ليس للمفْلسِ إخوانُ
وكلّ ذي عيشٍ بلا درهمٍ فعيشُه ظلمٌ وعـُدوانُ

وقال أيضا في قصيدة أخرى يستمطر الإشفاق عليه إذ لا يجد ما يقيه شدة البرد غير جبّة (رعْدة):[51]

قيلَ: ما أعددْتَ للبرْ دِ فقد جاء بشدَّةْ
قلت: دُرّاعةُ عُـرْيٍ تحتها جبَّةُ رِعْدهْ

وقال يعزي نفسه بأن ما به من جوع، يمكن التغلب عليه برغيف يابس ما دام الموت يسوي بين الخليفة والفقير البائس، وهو قول ينطوي على نقد وتمرّد واضحين:[52]

الجوعُ يُطْرَدُ بالرغيفِ اليابـــسِ فعلامَ تَكْثُرُ حسْرتي ووساوسي
والموتُ أنصفُ حين عُدّلَ قسمةً بين الخليفةِ و الفقير الـبائس

ووصل الأمر بهذا الشاعر إلى اليأس من إمكان تحسّن أحواله في ظل هيمنة العناصر الفارسية على مقدرات العرب، يقول[53]

وجـاهلٍ قال لي: لابدَّ من فَرَج فقلتُ للغيظِ : لِمْ لا بدَّ مِـــن فَرَج؟
فقال: من بعد حينٍ ، قلتُ يا عجباً من يضمنُ العمْرَ يا باردَ الحُـجَج
لو كان ما قلتَ حقـاً لم أكن رجلاً مقسّمَ العمرِ في الروحات والدُلَج
أسعى لأدركَ حظاً لو حظِـيتُ به ما كنتُ أولَ محـظوظٍ من الهَمَج

وأما يأسه من إمكان تحسّن أوضاعه المعيشية، فسببه أنه عربي من بطاح مكة لا من " قم" ولا من "كرج " المدينتين الفارسيتين:

ذنبي إلى الدهر أنّي أبطحيُّ أبٍ و لستُ أُعْزَى إلى قمٍّ ولا كَـرَجِ

ويقص الشاعرعلينا في قصيدة أخرى مأساته، إذ كان يقصد بعض القصور، لعله يظفر بأكلة يسدّ بها جوعه، لكنه يعلم أنه سيُردّ عن أبوابها مدحوراً، فكان يتظاهر بالـــشبع، فيبادر لحظة وصوله باب القصر بالتجشؤ في وجه البواب، وأنه إنما جاء ليسأل عن دواء لتخمته، لكن ذلك التمويه لم يكن لينطلي على ذلك البواب، الذي ألف مثل هذه الحال من أمثال هذا الشاعر، فيبادر إلى صفع الشاعر.

إن لهذه الحكاية دلالة اجتماعية كبيرة في تعرية الأثرياء وتجريدهم من الحسّ الإنساني، وهي تكشف أيضاً عن مهارة الشاعر في هذا التخييل وهذا الحوار الفني الصادق. يقول مصوّرا هذه المأساة الضاحكة القائمة على المفارقة:[54]

تجشّأتُ في وجْهِ بوابـهِ ليعرفَ شبْعي فلا أُمـَنعُ
وقلت له: إنّ بي تخمةً فهل من دواءٍ لها يـنفعُ؟
فقال: لقد غرَّ ني معشرٌ بهذا الحديث الذي أسمع
فلما نذرْتُ بهم صاحبي و لاحتْ موائدُهُ أوْجـعوا
فراحوا بِطاناً ذوي كظّـةٍ و أقبلْتُ من أجلهم أُصْفعُ

وأما ابن الحجاج فهو يسلك مع ابن سكرة الهاشمي في كثرة العبث. يقول الثعالبي في وصفه ووصف شعره: " ولا يبني جلّ قوله إلا على سخف...(و) أنه فرد زمانه في فنّه الذي شهر به، وأنه لم يسبق إلى طريقته، ولم يلحق شأوه في نمطه، ولم يُرَ كاقتداره على ما يرده من المعاني التي تقع في طرزه، مع سلاسة الألفاظ وعذوبتها، وانتظامها في سلك الملاحة والبلاغة، وإن كانت مفصحة عن السخافة، مشوبة بلغات الخلديين والمكدين وأهل الشطارة. ولولا أن جد الأدب جد، وهزله هزل كما قال إبراهيم المهدي، لصنتُ كتابي هذا عن كثير من كلام من يمدّ يد المجون فيعرك بها أذن الحُرم، ويفتح جراب السخف، فيصفع بها قفا العقل."[55]

وعلى سخف شعر ابن حجّاج، وبذاءة قوله، فإنه كان مقبولاً محبوباً لدى أهل عصره، كأنهم رأوا فيه تنفيساً عن كرب عصرهم المأزوم بالفتن، والمشكلات المذهبية والاجتماعية، ولذلك كان "ديوان شعره أسْيَر في الآفاق من الأمثال، وأسرى من الخيال"[56]

ويبدو أن هذا الشاعر كان يحسّ بمعاناة الناس الحادة من ضغوط الحياة، وقلق أهلها من فساد الأوضاع السياسية، فاتخذ من شعره وسيلة ينفّس به عن الناس، واستجاب الناس لهذا

النهج، فأعجبوا بشعره، وحفظوا ديوانه، فاللامبالاة تفيد حين يعجز الإنسان عن اعتماد سبيل الجدّ والتزمت مخرجاً له من أثقال الحياة، وهموم العصر. إنه يفصح عن سبب اختياره لهذا الأسلوب الشعري العابث السخيف قائلاً في إحدى قصائده، وقد سمى نفسه نبيَّ سُخْف، لتوائم معجزاته أهل عصره السخفاء(57)

رجل يدّعي النبوّةَ في السُخْـــف ومن ذا يشكُّ في الأنبياءِ
جاء بالمعجزات يدعو إليها فأجيبوا يا معشرَ السخفاء

وقال في أخرى إن شعره نتِن ليوائم نتن متلقي هذا الشعر الكنيفي الرائحة ولـ (يمشي به في المعاش) أمرُه، على ما في هذا التعبير من سوقية:(58)

بالله يا أحمدُ بنُ عـمْرو تعرفُ للناس مثلَ شِـعْري؟
شعرٍ يَفيضُ الكنيفُ منه من جانبيْ خاطِري ونحْري
نسيمُه منتنُ المعاني كأنَّه فلْتةُ بجُحْرِ
لو جدّ شِعري رأيتَ فيه كواكبَ الليل كيف تَسري
وإنما هزْله مُجونٌ يمشي به في المعاش أمري

وقال أيضاً في قصيدة خفيفة، تكاد لغتها تكون سوقية:(59)

هربْتُ مـن موطني إلى بلَدٍ قد صفّر الجوعُ فيه مِنقاري
يقول قومٌ: فرّ الخسيسُ ولو كان فتى كـان غيرَ فرّار
لا عيبَ، لا عيبَ في الفرار فقد فرّ نبيُّ الهدى إلى الغار

فهو لم يتورع عن أن يشبِّه نفسه بمحمد، عليه السلام، ولا بغيره من الرسل في مقايسات فيها تجاوز، فهو حيناً المسيح، وهو حيناً ثانياً داود، وهو حيناً ثالثاً قابيل، وهو في شعر آخر يذكر أعلاماً بارزين في التراثين الشعري والسياسي العربيين: حاتماً، والرشيد، والحسين بن علي، والخنساء، وصخراً، والفرزدق، والبحتري، والزجّاج، والعجاج، وجريراً......كل ذلك في سياقات شعرية فيها مقدار غير قليل من العبث والتعريض، دون مواربة أو تلميح، بل بتصريح وجراءة عجيبين.(60) وذلك إلى جانب إكثاره من ألفاظ الكنيف، وبيت الخلاء، والنكاح واللواط...... وألفاظ أخرى تربأ هذه الدراسة عن إيرادها.

وما من شكّ أن سوء حاله، وتردي أوضاعه، قد ولّد في نفسه هذه النقمة كلها، فلم يعد يكترث بشيء، لا بالقيم ولا بالناس، ولا بالسلطة أياً كانت. فماذا يتوقّع ممن يضطرّ إلى بيع ثيابه ليأكل، غير أن يكون السخط لسانه؟(61)

يا سادتي قولُ ميْتٍ في مثل صورةِ حيّ
لم يبقَ في الخرْج شيءٌ أتأذنون بشَيّ؟

وقال في نقد واضح لعز الدولة البويهي،وقد رأى كلابه تطعم لحوم الجدا، مع أنه هو لا يكاد يجد ما يأكله، ويتمنى أن لو يضيفه عزّ الدولة إلى جملة كلابه ليتسنى له أن يأكل مما تأكل، فهو صائم أبداً عن تناول اللحوم، شأنه شأن كبير من عُبّاد النصارى الدائم الصيام:[62]

رأيت كلابَ مولانا وقـــوفاً ورابضةً على ظهر الطريــقِ
تغذّى بالجِدَا فودِدْتُ أنـّـي و حقِّ الله ، خركوشُ سَلوقيّ
فيا مولايَ رافقْني بكلْـــبٍ لآكلَ كلَّ يومٍ معْ رفـــيقي
جفاني اللحمُ وهو شقيقُ روحي فمَنْ يُعْدي على ذاك الشقيقِ
كأن اللحم في صوم النصــارى تـوهّمني ابنَ عمِّ الجاثليــق

وقوله في أخرى في صورة تبعث على الإشفاق عليه، والتعاطف معه، وتجيز له التمرد والسخط، كما قد تسوّغ له السخف، إذ لا يكاد يجد غير الخبز "الحاف" الذي يجرح حلقه مغموساً بالملح، فهزل لذلك جسمه:[63]

هذا وخبزيَ حافٌ بلا مـرَقٍ فكيف لو ذقتُ ثَرْدَةَ الدسَمِ
ما لي وللَّحمِ إنَّ شــهوتَهُ قد تركتْني لحماً على وضَمِ
وما لحلقيَ والخبزُ يجرحُهُ بالملح يشكو حُزونةَ اللقَمِ

وتشيع مثل هذه الشكوى في شعره، ونراه يلحّ في طلب أبسط مستلزمات الحياة، فقد يلتمس عمامة، أو يستعطي نعلاً، أو يطـلب أجُرًا، كما قد يتنجّز دراهم، أو يستعطي شعيراً لدابّته، أو يطلب خيشاً يتقي به لظى الصيف، أو يستعين بمن يختن له ولده.[64]

ومرة أخرى نقول: إن شعر هذا الشاعر بما فيه من بذاءة وإسفاف، يكشف عن وضع مزر كان عليه طائفة من شعراء القرن الرابع الهجري،أو على الأقل، هذا ما يقوله شعرهم، ويبدو أن هؤلاء الشعراء لم يكونوا يأبهون بالسلطة السياسية ولا بالسلطة الدينية، أو لكأن السلطة لم تكن تأبــه بهم وبمعاناتهم، كأنها سدت آذانها عن الاستماع إلى شكاوى المعوزين، وتمرّد المتمردين من أرباب القول الذي لايحرّك ساكناً، فضلاً عن أن يهزّ عروشاً.

ونختم هذه الدراسة بالإشارة إلى أبي دلف الخزرجي صاحب القصيدة الساسانية التي غصّت بمصطلحات المكدين، وكشفت عن أساليبهم الملتوية الغريبة العجيبة في تصيّد الإشفاق عليهم من الناس، وهي ترسّخ الاعتقاد عما كان في القرن الرابع الهجري من فساد اجتماعي، وانحلال خلقي كانت عليه طوائف من الناس في بغداد بخاصة، وهي تماثل حكاية أبي المُطهِّر الأزْديِّ المعروفة بحكاية أبي القاسم البغدادي[65]، والتماثل بين القصيدة الساسانية وحكاية أبي القاسم البغدادي في أنهما كلتيهما تصفان أخلاق الأوباش، وتحكيان ألفاظهم، وفي مجانة هذين العَلَمين فائدة "

لمن يعنيه أن يقف على ما أهملت المعاجم من ألفاظ الجماهير السوقية، وبكل مدينة أحياء ماجنة، تنقد بألفاظ وتعابير تمثّل ما فيها من شواذ الأخلاق.[66]

وقد فسّر الصاحب بن عباد قصيدة أبي دُلَف الخزرجي ومصطلحاتها السوقية الساسانية، وأوقفنا بما صنع على لغة ومصطلحات شديدة الخصوصية، وبذلك تكون هذه القصيدة بمضمونها، وبمصطلحاتها، وبمعجمها، داخلة في حيّز الخروج عن المألوف، والتمرد على القيم الاجتماعية، والمعايير الدينية، والخروج كذلك على اللغة الرصينة ومواصفاتها القارّة في ذهنية العلماء والأدباء المحافظين. كما أن فيها جراءة تبدو في تصدِّي لغوي كبير ألف(المحيط في اللغة) لشرح مصطلحات الساسانيين على ما فيها من سخف وبذاءة.

ويبدو أن التمرّد في شعر المعوزين كان اتجاهاً لديهم جميعاَ، وهو لم ينصبَّ على القيم الاجتماعية والدينية، وعلى السلطة السياسية حسب، بل طال لغة القصيدة ومعجمها وصورها وأساليبها كذلك، فقد وجدنا شاعراً يدعى أبا المخفّف عاذر بن شاكر البغدادي وهو من معاصري المأمون، يتمرد لا على المقدمة الطللية حسب، بل على الخمر ودورالقيان والحانات التي قدّسها أبو نواس، فقد حمله فقره وعوزه ومسغبته إلى الدعوة لافتتاح الشعر بوصف الخبز، ويروى عنه أنه كان[67] "يركب حماراً، وتركب جارية له حماراً آخر وتحتها خُرْجُ، ويدور بغداد، ولا يمرّ بذي سلطان ولا تاجر ولا صانع إلا أخذ منه شيئاً يسيراً، مثل قطعة أو رغيف، أو كسرة" وقد وجدناه يقول في قصيدة:[68]

دعْ عنك رسْمَ الديــار ودعْ صفـاتِ القفـــارِ
وعدِّ عن ذكْــر قـــومٍ قد أكثروا فــي الــعُقارِ
ودع صفـــاتِ الزنـــانيــــــرِ فـي خصـور العذاري
وصِـفْ رغيفـاَ سريـّاً حكَتْـهُ شمـسُ النهـارِ
أو صورةُ البـدر لمّـا اسْـــــتتــمَّ فــي الاسْـتدار
فليـــس يَحْسُــــنُ إلا فــي وصــفْهِ أشعـاري
وذاك أنِّـــي قديمـــاً خــلعْتُ فيــه عِــذاري

ولا يكتفي هذا الشاعر بالدعوة إلى مبدأ الإزاحة والإحلال في الشعر، إزاحة الوقفة الطللية والمقدمة الخمرية، وإحلال التغني بالخبز محلهما، بل نراه يترنّم بمعشوقه (الرغيف) على شاكلة تغنِّي العشاق بمعشوقاتهم.

ونراه يكرر هذا الهيام بالخبز، والتمرّد على المقدمتين جميعاً: الأطلال وما يتصل بها من ذكر الحسان، والخمر ومجالسها وساقياتها وسقاتها، يقول في هذا:[69]

جانبتُ وصْلَ الغانيـــاتِ   وصحوتُ عن وصلِ اللواتي
نعِمتْ بهنّ عيـــونُ مَـن   واصلْنه حتـــى الممـــاتِ
فدع الطـــلولَ لجاهـــلٍ   يبكـي الديـــارَ الخاليـات
ودعِ المـــديحَ لأمْــــردٍ   ولخـــادمٍ ولغانيـــاتِ
وامــــدحْ رغيــفاً زانَـه   حرْفُ يجلُّ عــن الصفــات
يدعُ الحليـــمَ مدلَّـــهاً   حيرانَ يغلطُ فــي الصــلاة
وكأنمــا نقْـشُ الرغـيـــــف نجـومُ ليلٍ طالعـــات
منْـعُ الرغيفِ سفاهـــةٌ   ترْكُ الرغيفِ مــن الهبــاتِ

الخاتمة

قد تبين لنا مما استعرضنا أن عدداً من الشعراء العباسيين ممن عاش في القرون الهجرية الثلاثة الأولى من عمر الدولة العباسية، قد عانوا العنت، والحرمان، والفقر الشديد، فقابلوا ظرفهم بغير قليل من التمرّد، والسخط، والشكوى، فنظموا شعراً ساخطاً شكّاءً، بل قادتهم ظروف عيشهم إلى أن يديروا ظهورهم إلى قيم المجتمع، فلم يكونوا يأبهون بالسلطة أياً كانت، كأنها حين أغمضت أعينها عن ظروفهم وقساوة عيشهم، أغمضتها أيضاً عن تجاوزاتهم عن الثوابت الدينية، والمسلمات من القيم والأعراف الاجتماعية. وقد اشترك هؤلاء الشعراء جميعاً في إظهار التحامق، وفي كثرة التجوال، والتكدّي، والسخط، وذمّ الزمان، وجاءت أشعارهم في الغالب مقطّعات أو قصائد قصيرة مصوغة بلغة سوقية، وأوزان قصيرة، وكثر فيها السرد والقصّ والحوار، كما كثرت فيها الرؤى وأحلام اليقظة والأماني التي تكشف عن إحباطات ناظميها،الذين لم يكونوا في الغالب من الشعراء المشهورين، كأن شهرة الشعراء في ذلك الزمان، كانت رهينة باتِّصال الشعراء بذوي الجاه والسلطان، أو كأن بذاءة أشعارهم كانت من أسباب عدم جمع دواوينهم وسيرورتها بين الرواة والعلماء. ولولا عكوف أصحاب كتب الأخبار والاختيارات على جمع أخبارهم وشيء من أشعارهم، لضاعت هذه الطائفة من الشعراء، ولضاع شعر عربي كثير، له خصوصيته وعمقه الإنساني، وله لغته وتعبيراته المتفرِّدة، وله جموحه وشغبه وتجاوزاته أيضاً.

The Reflect of Poverty on the Artistic Trait of the Abbassid Poets in the First Three Centuries of the Abbassid Era

Yasin Ayish Khalil, *Department of Arabic Language,University of Jordan, Amman, Jordan.*

Abstract

This article tackles the reflect of poverty on the artistic trait of the Abbassid poets in the first three centuries of the Abbassid era. It is noteworthy that the poets who opposed the regime were very impoverished and almost unknown. Seems that by doing so they were very much keen to raise their cause and to attract attention towards themselves.

قدم البحث للنشر في 2010/10/5 وقبل في 2011/5/15

الهوامش

1. المصادر التي عرفت به وأوردت نماذج من أشعاره كثيرة، انظر مثلا: الأصفهاني،علي بن الحسين(ت 356 ه/966 م) كتاب الأغاني، تحقيق أحمد زكي العدوي وزملائه، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ج 10، ص 235؛ ابن المعتز، عبدالله (ت 296ه/908م) طبقات الشعراء، تحقيق عبدالستار فرّاج، دار المعارف بمصر 1976 ص54- 62؛ ابن قتيبة الدينوري، محمد بن مسلم (ت 276ه-889 م)،الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر،دار الثقافة، بيروت، 2: 660-662؛ الخطيب البغدادي، أحمد بن ثابت،(ت463ه /1070م) تاريخ يغداد، تحقيق عبدالقادر عطا، بيروت، ج 8، ص 490--494؛ الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت764ه / 1362 م) الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، ج 14، ص 145- 148؛ العباسي، عبد الرحيم بن علي (ت 963 ه / 1555 م) معاهد التنصيص، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، نشرالمكتبة التجارية، القاهرة، 1947،ج 2، ص 211، ولمزيد من التفصيل انظر ديوان أبي دلامة الأسدي، إعداد رشدي علي حسن، مؤسسة الرسالة ودار عمار، ط1، بيروت، 1985، ص7 – 27، وحاشية ديوان أبي دلامة بشرح وتحقيق إميل بديع يعقوب ص11- 12
2. الأغاني 10:238، ديوان أبي دلامة، إعداد رشدي علي، ص80
3. الأغاني 10: 238، ديوان أبي دلامة، ص49
4. الأغاني10:250، ديوان أبي دلامة، ص 83
5. الأغاني 10: 251، ديوان أبي دلامة، 92
6. الأغاني 10:252، ديوان أبي دلامة، ص250، القواصر جمع قاصر وهو البارد

7. الأغاني، 10: 247
8. الأغاني 10:250
9. الأغاني 10: 252، والساج:الطيلسان الضخم الغليظ
10. الأغاني 10: 252
11. انظر ما يقوله يوسف خليف في:حياة الشعر في الكوفة إلى نهاية القرن الثاني الهجري ص 620-727،622-728،وانظر في مبادئ المرجئة أحمد أمين:ضحى الإسلام ج3: 3
12. انظر: غوستاف غرنباوم: شعراء عباسيون:121- 157، وانظر في أخباره ونماذج من أشعاره أيضاً في: حيوان الجاحظ 1: 225،61، 263، 355، 2:343، 360، 3:385، 536، 4: 63، 454،410، المبرد: الكامل 3: 5 طبقات ابن المعتز:126، الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد 13: 146، حسين عطوان: شعراء الشعب في العصر العباسي الأول، ص65-74
13. شعراء عباسيون، ص139، طبقات ابن المعتز، ص 126، والقهوة المسكية هي الخمرة لها رائحة المسك، والجلنارة ذات اللون الأحمر كزهر الرمان. وأما زرارة فالظاهر أنه صاحب حانة
14. شعراء عباسيون 140، طبقات ابن المعتز 127،الترز: اليابس الذي لا روح فيه، وسمي الموت تارزا، والجمز ضرب من العدْو
15. شعراء عباسيون:145
16. نفسه، ص138، تحنّبن بيتي: ملن عنه وانحرفن
17. نفسه، 149، الثعالة أنثى الثعلب، وتحجره تضطره لأن يحتمي في حجرته
18. تبالة: موضع ببلاد اليمن. انظر معجم البلدان 2: 9
19. شعراء عباسيون، ص 130، طبقات ابن المعتز، 129
20. طبقات ابن المعتز، ص131
21. نفسه، 150-151
22. وردت هذه الأبيات في كتاب الجاحظ البغال غير معزوّة انظر كتاب البغال ص246 وانظرها في كتاب: شعراء الشعب في العصر العباسي الأول: ص 55 - 56
23. هذا الشاعر من الشعراء العباسيين المقلين، ولكنه عد في فحول المحدثين، وهو من ولد المهلّب بن أبي صفرة. له مرثية في المتوكل، توفي سنة259 للهجرة انظر: طبقات ابن المعتز، ص 313-314، المرزباني: الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، تحقيق محمد حسن شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995، ص383. والسهك ريح كريهة
24. ابن المعتز: طبقات الشعراء، 364.وعبد الله بن أبي الشيص هذا هو غير أبي الشيص محمد بن عبد الله الذي له ترجمة ضافية في الشعر والشعراء 2: 721 وفي طبقات ابن المعتز، ص 72 وآلى:أقسم

25. انظر في ترجمته: ابن الجراح: الورقة ص53، طبقات ابن المعتز: ص375، أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة ج2: 53 وفيه الشاشي بدل الساسي، والساسي قرية تحت واسط في العراق كما في معجم البلدان – مادة ساسي -، وكثرت الشكوى والبذاءة في شعره
26. الورقة، 5 5، والزبيل الوعاء يحمل به
27. طبقات ابن المعتز: 340- 342، 452، وجاء فيه: كان يتحامق، وفي مختصر الطبقات أنه كان من آدب الناس وأحكمهم عقلاً وأشعرهم كما كان عالماً بالنحو وبالغريب والأخبار. عاصر الخليفة المتوكل.
28. طبقات ابن المعتز، 340
29. نفسه، 341
30. نفسه، 341
31. انظر ترجمته في: يتيمة الدهر 2: 347-357، وفيه قال الثعالبي: هو أبو الحسن محمد بن محمد فرد البصرة وصدر أدبائها، أكثر شعره في الشكوى وذم الزمان، وقالوا كان مجوّداً في البيتين والثلاثة أما إذا أطال فلا يفلح، وهو ممن أعجب بهم الصاحب بن عباد
32. انظر: يتيمة الدهر 1: 311 وفيه قال الثعالبي: نادرة الزمان، وممن تصرف بالشعر الجزل، وهو أحد المداح المجيدين، شاعر شامي , وممن أثنى عليه الصاحب.
33. نفسه 2: 248
34. يتيمة الدهر 2:248
35. نفسه 2: 350
36. نقسه2: 350
37. نفسه 2: 347
38. يتيمة الدهر 1:310
39. نفسه 1، 313
40. نفسه 1: 216
41. معجم الأدباء 5: 1930
42. أبو هفان: أخبار أبي نواس:12
43. يتيمة الدهر 3:117
44. نفسه3: 117
45. نفسه 3: 118
46. نفسه 3:118، أثفار جمع ثفَروهو السير الذي في مؤخر السرج
47. نفسه 3: 119

48. انظر ترجمته في:-يتيمة الدهر 3: 3- 29 وهو شاعر متسع في أنواع الإبداع على ما يقول الثعالبي، وأكثر شعره في المجون والسخف، وهو وابن حجّاج في العراق في القرن الرابع كجرير والفرزدق في عصريهما. قيل: له ديوان يربو على الخمسين ألف بيت، عشرة آلاف منها في الخمر
49. نفسه 3: 30
50. نفسه 3:352
51. نفسه 3:250
52. نفسه 3:28
53. نفسه 3: 25، الدلج السير في الليل، والهمج الرعاع ومن يسير هملاً بلا نظام
54. نفسه 3: 17
55. نفسه 3: 30
56. نفسه 3: 31
57. نفسه 3:32
58. يتيمة الدهر 3: 32
59. نفسه 3:49
60. انظر في ذلك يتيمة الدهر 3:31-51
61. نفسه 3: 57
62. نفسه 3: 57 السلوقي نوع من الكلاب منسوبة إلى قرية تدعى سلوق، والخركوش لفظ أعجمي لم أقع على معناه في المعاجم، والسياق يدل على أنه جنس من الكلاب، الجاثليق هو مقدّم الأساقفة عند بعض مسيحيي الكنيسة الشرقية كما في المعجم الوسيط
63. نفسه 3:58، الثردة الخبز يفتّ في مرق الدسم، وحزونة اللقم صعوبة بلعها، والوضم كلّ ما يوضع عليه اللحم من خشب أو حصير يوقى به من الأرض
64. نفسه 3: 58
65. نفسه 3: 61
66. زكي مبارك: النثر الفني في القرن الرابع الهجري 2: 422، نبيل أبو حلتم اتجاهات الشعر في القرن الرابع الهجري، ص 416
67. الورقة، 115
68. نفسه
69. نفسه

قائمة المصادر والمراجع

ابن الجراح، أبو عبد الله محمد بن داود. (1953). **الورقة**، تحقيق عبد الوهاب عزام وعبد الستار أحمد فراج، دار المعارف، القاهرة.

ابن المعتز، عبد الله. (1976). **طبقات الشعراء**، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف بمصر.

ابن قتيبة الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم. (د.ت). **الشعر والشعراء**، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الثقافة، بيروت.

ابن منظور جمال الدين. (د.ت). **لسان العرب**.

أبو حلتم، نبيل. (1985). **اتجاهات الشعر في القرن الرابع الهجري**، دار الثقافة، الدوحة.

أبو دلامة. (1985). **ديوان أبي دلامة**، إعداد رشدي علي حسن، مؤسسة الرسالة ودار عمار، ط1، بيروت، ص7 – 27.

أبو دلامة. (1994). **ديوان أبي دلامة**، تحقيق إميل بديع يعقوب، دار الجيل، بيروت.

أبو هفان، عبد الله بن أحمد. (د.ت). تحقيق عبد الستار أحمد فراج، مكتبة مصر

الأصبهاني، أبو الفرج علي بن الحسين. (د.ت). **الأغاني**، مصور عن طبعة دار الكتب المصرية.

أمين، أحمد. (1936). **ضحى الإسلام**، ط7، مكتبة النهضة المصرية.

التوحيدي، أبو حيان. (1953). **الإمتاع والمؤانسة**، صححه وشرحه أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات المكتبة العصرية، بيروت – صيدا.

الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد. (1979). **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن محبوب. (د.ت). **الحيوان**، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر ودار الجيل، بيروت.

الجاحظ. (1991). **كتاب البغال**، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل.

الخطيب البغدادي، أحمد بن علي. (د.ت). **تاريخ بغداد** ـ دار الكتاب العربي، بيروت.

خليف، يوسف. (1968). **حياة الشعر في الكوفة إلى نهاية القرن الثاني الهجري**، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر،القاهرة.

الصفدي، خليل بن أيبك. (1982). **الوافي بالوفيات**، اعتناء س. ديدرنغ، نشر فرانز شتاينر، بيروت.

العباسي، عبد الرحيم. (1947). **معاهد التنصيص على شواهد التلخيص**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، عالم الكتب، بيروت.

عطوان، حسين. (1970). **شعراء الشعب في العصر العباسي الأول**، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان.

غرنباوم، غوستاف. (1959). **شعراء عباسيون**، ترجمها وأعاد تحقيقها محمد يوسف نجم، وراجعها إحسان عباس، منشورات مكتبة الحياة، بيروت.

مبارك، زكي. (د.ت). **النثر الفني في القرن الرابع الهجري**، منشورات المكتبة العصرية، صيدا – بيروت.

المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد. (د.ت). **الكامل**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم والسيد شحاتة، دار نهضة مصر.

المرزباني، محمد بن عمران. (1995). **الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء**، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت.

ياقوت الحموي. (1993). **معجم الأدباء**، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

ياقوت الحموي. (د.ت). **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت.